دولة الموحدين في المغرب :

نشأة دولة المُوحّدين :

نشأت الدولة المُوحِّدية، أو دولة المُوحِّدين في القرن السادس الهجريّ، وكان ذلك على يَد شخص يُعرَف باسم (ابن تومرت)، وهو مُحمَّد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال الذي لقَّبه الكثيرون ب(المهديّ)، وسانده في ذلك رجلان من أصحاب العِلم، وهما: أبو مُحمَّد عبد الله بن محاسن الونشريسيّ، وعبد المُؤمن بن علي التاجريّ الكوميّ الندروميّ، ومن الجدير بالذكر أنّ ابن تومرت اجتهدَ في دراسة اللُّغة، والدِّين في بلاد أوروبّا، والمشرق، وتبنَّى حركة دينيّة إسلاميّة تهدف في الأساس إلى إنشاء خلافة إسلاميّة ترجع بالأُمَّة الإسلاميّة إلى عهد الخُلفاء الراشدين، والتركيز على مبدأ التوحيد الخالص، ومن هنا جاء اسم الدولة (المُوحِّدية)، واسم الأنصار، والتابعين لها (المُوحِّدين)، وقد سعى ابن تومرت جاهداً؛ لنَشْر هذه الحركة الدينيّة، وأخذَ يجهر بها في كلِّ بلد يذهب إليه، ومنها العواصم العربيّة السياسيّة، والعِلميّة، مثل: مصر، وتونس، وطرابلس، وقسنطينة، ومراكش، وتلمسان، وفاس، وقد أيَّده في دعوته عدد كبير من الأتباع، ممّا مكَّنه من قيادة ثورة كبيرة، استطاع من خلالها الدعوة إلى الأصول الجامعة، والقضاء على الفروع، كما أنَّه أسَّس حكومته في المغرب العربيّ، وأضفى عليها الصبغة المهدويّة، والتأويل العقليّ.

واستمرَّ ابن تومرت بحَشد الأنصار، والمُؤيِّدين لدعوته، إلى أن حَظِي بمُبايعة الأُمَّة المغربيّة له؛ لتولِّي الولاية في عام ٥١٦هـ، وذلك بعد أن استطاع القضاء على دولة المُرابطين في المغرب الأقصى، علماً بأنّه استمرَّ في ولايته إلى أن تُوفِّي في عام ٥٢٤هـ، وقد استلم الحُكم من بعده عبد المُؤمن بن علي الذي وسَّع حُدود حُكمه؛ لتشمل المغرب الأقصى بأكمله في عام ٥٤١هـ، وأعلن بذلك عن نشوء دولة المُوحِّدين، كما وسَّع حُدود دولته، لتضُمَّ الأندلُس، وقُرطبة، وخاض معركة الأرك ضِدَّ الإسبان، وقضى على حُكم النورمان، والمُرابطين في مراكش، وتونس، وممّا يجدر ذِكره أنّ المغرب العربيّ تَوحَّد في عهد دولة المُوحِّدين على مذهب واحد هو مذهب الإمام مالك، وثقافة واحدة، واستطاع عبد المُؤمن بحِنكته العسكريّة تكوين جيش قويّ بلغ عدد جُنوده نحو النصف مليون مُقاتل.

ويمكن ايجاز حكم ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بالآتي :

١- يعد محمد بن تومرت، المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، لأنه وضع الخطوط العريضة، التي قامت عليه الدولة.

٢- يعتبر منهج ابن تومرت، خليطاً من علم: الكلام، والمعتزلة، والأشاعرة، والشيعية الأمامية، والخوارج، وغيرهم.

٣- لم يتورع ابن تومرت، في سفك الدماء، وسبي النساء، وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية، من الكذب والخدع، من أجل الوصول إلى هدفه.

٤- يعتبر ابن تومرت، هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي، بقوة السلطان، وتأليفه لكتب في مجال العقائد، بهذا الخصوص.

٥- كان لابن تومرت، عبقرية تنظيمية، ومنهجية تربوية، وأهداف سياسية، سعى بكل الوسائل والأساليب لتحقيقها.

٦- ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله؛ على تغلغل معتقدات ابن تومرت، المنحرفة في أوساطة.

٧- تزعم عبدالمؤمن بن علي، قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت، وخاض حروباً ضارية، انتهت بسقوط دولة المرابطين.

٨- ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبدالمؤمن بن علي، تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، والتدرج في القضاء على تنظيم بن تومرت، في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

٩- لم يلتزم عبدالمؤمن، بالمنهج التومرتي حرفياً، وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه، وأهدافه السياسية، ولذلك نجده، ينحرف عن تعاليم ابن تومرت، كلما حانت له الفرصة، كما حدث عندما ألغا نظام الطبقات، وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت، وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى جميع الموحدين، تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت، والعمل على نشرها؛ ويعتبر ذلك تكتيكاً من عبدالمؤمن، لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

١٠- أن الانقسام والخيانة في صفوف دولة المرابطين؛ كانت سبباً رئيسياً من اسباب انهيارها.

وتولَّى حُكم الدولة المُوحِّدية بعد وفاة عبد المُؤمن خليفته (أبو يُوسف يعقوب بن يُوسف المنصور) الذي بلغت الدولة في عهده عصرها الذهبيّ، وأَوْج ازدهارها؛ حيث بُنِيت القِلاع، والمساجد، والمُستشفَيات، وغيرها من مظاهر التطوُّر، واستمرَّ المنصور في حُكمه إلى أن تُوفِّي في عام ٥٩٥هـ، واستلم الحُكم مَحلَّه ابنه (مُحمَّد الناصر)، وقد شَهِدت الدولة المُوحِّدية في عهده بداية سُقوطها؛ بسبب الهزائم المُتتالِية، واستمرَّت الدولة على ذلك إلى أن وقعت تحت حُكم بني مرين في عام ٦٦٨هـ.

النُّظم والتنظيمات في دولة المُوحِّدين:

ضمَّت دولة المُوحّدين نُظماً سياسيّة، وإداريّة، وقضائيّة، وعسكريّة، شَأنها في ذلك شَأن الدُّول الأخرى، وفيما يأتي شرحٌ لكلٍّ من هذه النُّظم:] النظام السياسيّ: حيث إنّ الخليفة هو رأس الدولة، وهو يُعرَف أيضاً ب(أمير المُؤمنين)، و(الإمام)، وقد تعاقب الخُلفاء على حُكم الدولة المُوحِّدية؛ فكان أوَّلهم ابن تومرت، وثانيهم عبد المُؤمن، ثمّ الأبناء من بني عبد المُؤمن، وكان كلُّ خليفة يحرص على إعداد وليٍّ عهده إعداداً جيّداً، ويلجأ في مشورته في الأمور العسكريّة، والإداريّة، والاقتصاديّة إلى الهيئة الاستشاريّة التي اختلف تشكيلها من خليفة إلى آخر.

النظام الإداريّ:

حيث تَمثَّل النظام الإداريّ في دولة المُوحِّدين بوجود عدد من الوزراء، مهمَّتهم هي تنفيذ أوامر الخليفة، وتعليماته، وعدد من الكُتَّاب، ومهمَّتهم مُعاوَنة الخليفة في إدارة شؤون الدولة، كما ضمَّ النظام الإداريّ مَنصِب الحاجب، وساعي البريد، ورجال الشُّرطة، وعدداً من الدواوين.

النظام القضائيّ:

إذ ضمَّت دولة المُوحّدين نظاماً قضائيّاً قويّاً كانت مهمَّته الفصل بين المُتنازِعين، والمحافظة على الأمن في الدولة، حيث يتمّ تعيين القُضاة بأمر من الخليفة، وهم على صِنفَين: قاضي الجماعة؛ وهو الأعلى رُتبة، ويُمثِّل مُستشار الخليفة، وقاضي المُدُن؛ وهو الذي يحكم في المسائل القضائيّة الداخليّة، كما يُوجَد ما يُعرَف ب(المظالم)، ومَهمَّتها الفصل في القضايا التي عَجِز القضاء عن حلِّها.

النظام العسكريّ:

ضمَّت دولة المُوحِّدين جيشاً قويّاً استطاع الحفاظ على أَمن الدولة، واستقرارها في عهد الخُلفاء الثلاثة الذين اهتمُّوا بالجانب العسكريّ، وقد تشكَّل الجيش المُوحِّدي من قبائل أمازيغيّة، وعربيّة، وقبائل الزناتة، والصنهاجة، وغيرها من القبائل الأخرى، أمّا قِيادة الجيش فقد كانت في يَد أبناء الخُلفاء، أو الشيوخ، أو أبناء الشيوخ.

أسباب سقوط دولة الموحدين

هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الموحدين، وهي:

-الاعتداد بالرأي: في عهد الخليفة الناصر ابتعد الخليفة عند الأخذ بمشورة شيوخ الدولة واستبد برأيه، ولم يوافق على نصح الشيخ أبي حفص في عدم القتال في الأندلس.

-الإطالة في حصار شلبطرة: بلغ الحصار ٨ أشهر مما أضعف قوي المسلمين وأثر عليهم دخول الشتاء، وأتي الدعم الصليبي من شرق أوروبا واستعادوا قوتهم.

-الغرور بالعدد: اغتر الخليفة الناصر بكثرة جنوده قوة عتاده وأهمل في التنظيم والتقوية من عزيمة الجيش مما جعله أضعف من جيش ألفونسو الذي كان قوي العزيمة ومنظم للغاية.

من قضى على دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ

سار جيش بني مرين بقيادة أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ليقاتل الموحدين في أواخر عام ٦٦٧ هجرية وتحاربوا في معركة شديدة دارت في وادي غفو الذي يقع بين مراكش وفاس وقُتل في هذه المعركة إدريس الواثق أخر حكام الموحدين وانهزم جيش الموحدين ودخل المرينيين إلى مراكش لتسقط دولة الموحدين إلى النهاية في التاسع من محرم عام ٦٦٨ وتقام دولة المرينيين.

جوانب من المعالم الحضارية للمغرب في عصر الموحدين :

"العمارة الموحدية بالمغرب"

إمتاز العصر الموحدي بالمغرب في ظهور حركة فنية معمارية عظيمة واسعة النطاق،و تظهر سمات هذه الحركة من خلال تشييد الموحدون لمساجد عديدة كجامع الكتبية بمراكش، و صومعة حسان بالرباط و مسجد تينمل بقرية تينمل.

وتظهر سمات هذه الحركة مدنيا بإقامة مدن جديدة و توسيع أخرى قديمة و تشييد المستشفيات و المدارس. و تظهر عسكريا بمد الجسور و تشييد الحصون و الأبراج و الأسوار الدفاعية بالعديد من المدن.

واختلاف الموحدين في طرق البناء من مدينة إلى أخرى حسب الإمكانيات و الظروف الطبيعية المحيطة بالمدن.

– العمارة الدينية:

قامت دولة الموحدين كسابقتها دولة المرابطين على أساس دعوة دينية قام بها المهدي ابن تومرت، ما جعل الحياة العامة للبلاد سائدة بالطابع الديني، فبدأ الولاة الموحدون ببناء المساجد و تعميرها باعتبارها مركز الإشعاع الفكري للدعوة الموحدية.

فكانت العاصمة الموحدية مراكش أولى المدن التي شهدت إهتماما بالغا في إنشاء المساجد، ثم إنشاء صومعة حسان بمدينة الرباط أو رباط الفتح أنذاك التي بنيت على نفس طراز منارة الكتبية بمراكش التي لم يكمل بناءها الى اليوم، وأخيرا إنشاؤهم لمسجد تينمل بحصن تينمل الذي بني تخليدا لذكرى المهدي ابن تومرت.

– صومعة الكتبية:

بنيت هذه الصومعة بعد استلاء الموحدين على العاصمة مراكش، واستشارتهم للفقهاء في موقفهم من مساجد المرابطين، الذين أفتوا بهدمها، لأنها في رأيهم منحرفة عن القبلة ( ) فهدمت جوامعها و بنيت جوامع أخرى( )حسب ما جاء في رواية البيدق، وهناك روايات أخرى تقول بأن الجوامع المرابطية ظلت مقفلة .

و قد شرع الخليفة الموحدي عبد المومن ببناء جامع الكتبيين عام ثلاثة و خمسين و خمس مائة هجرية بالنسبة للمسجد الأول، و بني المسجد الثاني في نفس السنة و في الوقت الذي بنيت فيه صومعة حسان بالرباط و الخيرالدا بإشبيلية، وذلك بعدما هدم الخليفة الجامع الذي كان أسفل المدينة الذي قد بناه علي بن يوسف بن تاشفين.

وقد أتت تسمية مسجد الكتبة"المنارة"إستحاءا من النشاط الذي كان يقام في المساحة القريبة من المسجد، كالكتابين و الخطاطين و الكتبيين كما كانوا يسمون قديما .

ويعد جامع الكتبية من أهم الجوامع بالمغرب، لأنه ذو أبعاد استثنائية، فهو يشغل مساحة تقارب ٥٣٠٠متر مربع،و فيه ١٧جناحا،و ١١قبة مزخرفة بالنقوش.

وفي هذا الجامع أعلنت قرارات السلاطين، و جرت فيه كبريات الأحداث، بمئذنتة الكبرى التي يبلغ طولها مائة ذراع وعشرة أذرع بالصنع الأنيق( )،والمزخرفة في أجزائها العليا بإفريز خزفي بلون الفيروز وبمنبرهها المزود بنظام ألي للحركة الذي يعتبر من روائع فن النجارة الإسلامية الذي صنع بقرطبة في بداية

القرن الثاني عشر ميلادي بطلب من الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين من أجل الجامع الذي إنتهى من بنائه في مراكش، فنقل هذا المنبر للكتبية سنة ١١٥٠ميلادية،وبصومعتها المتميزة التي تعتبر أقدم من مثيلاتلها بالتي تعتبر أقدم من مثيلاتلها بإشبيلية و بالرباط،و التي أنشأها الخليفة الموحدي عبد المومن و أنهاها بعده المنصور، وتتواجد هده الصومعة في الجزء الجنوبي الشرقي للجامع،وتتخد تصميما مربعا يعلوه المنور المتوج بقبة مضلعة،كما تعلو هذين المستويين شرفات،وتتكون نواة الصومعة من ستة غرف متطابقة الواحدة فوق الأخرى ومحاطة بممر مائل و مستقيم و مغطى بقباب نصف أسطوانية تنطلق منها على مستوى الزوايا بعد القباب ذات الحافة الحادة،وقد أخد هذا النظام من برج المنار بقلعة بني حماد بالجزائر الذي بني في بداية القرن الحادي عشر ميلادي،وقد بنيت هذه المعلمة بالحجر الرملي الذي جلب من جبل كليز في مراكش،ولتخفيف نقل الصومعة تم استعمال الأحجار الصغيرة مع الآجرفي أجزائها العلوية،ومغطى بطبقة من الطلاء الكلسي،وقد تم تزيين الجدار بخطوط إلتقاء وهمية و ذلك لتغطية عيوب تقطيع الأحجار.

و تنقسم زخرفة الكتبية إلى خمس مستويات،وتنتشر على كل واجهة أشرطة مسطحة تتكون من عقود دائرية متعددة الفصوص،أما الفضاءات الفارغة بين الزخارف المنقوشة فتستقبل رسوما ملونة حمراء الطلاء العلوية للصومعة و المنور و هي تركيبات هندسية مؤلفة من تربيعات خزفية بيضاء و خضراء مائلة إلى الزرقة التي تجعلها متميزة عن باقي أجزائها.

و يوجد داخل صومعة الكتبية زخرفة متميزة حيت زيينت عدد من غرفها بقباب منها: قبة مخروطية مجزأة بالنسبة للأولى ذات قاعدة متنة و أربع حنيات ركنية بالنسبة للثانية،والغرفتين الثالثة والرابعة فهما قبة من الحافات الحادة بعقود متجاوزة تقوم على أعمدة صغيرة في الزوايا،والخامسة فهي ذات شكل هرمي من ثمانية أضلاع وتقوم على قاعدة مثينة وعلى حنيات ركنية ذات زوايا على شكل نصف قبو من الحافات الحادة،أما الأخيرة فقد غطيت بقبة ذات أضلاع متجاوزة على حنيات ركنية بمقرنصات ذات قاعدة.

و تبقى زخرفة هذه الصومعة مثل مثيلاتها مستلهمة من صومعة عبد الرحمان الداخل في جامع قرطبة الكبير.

مسجد حسان:

إن بناء الموحدين لجامع الكتبيين بمراكش و الخيرالدا بإشبيلية، فقد تم بناء مسجدا ضخما في رباط الفتح الذى يصفه المراكشى بقوله (وبنى الخليفة يوسف بن عبدالمومن فيها مسجدا عظيما كبير المساحة

واسعة الفناء لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له مئذنة نهاية العلو على هيئة منار الإسكندرية يصعد فيه بغير درج) لقد بني مسجد حسان بالرباط في العهد الموحدي من طرف الخليفة يعقوب المنصور عام إثنان و تسعون و خمس مائة هجرية،وقد بني تخليدا للنصر الذي حققه الخليفة على ملك قشتالة ألفونسوا الثامن في معركة الأرك.ويرى عدد من المؤرخين أن إختيارهذا المسجد بالرباط ليكون أكبرمساجد المغرب،ويضاهي أكبر مساجد الشرق ضخامة،ويدل أيضا على أن يتخد الموحدون من الرباط مدبنة كبيرة تختلف في أهميتها عن مدينتي فاس و مراكش. وقد سمي بهذا الإسم كما يقال نسبة إلى المهندس الذي وضع تصميمه:حسًان الأندلسي الذي كان قد أشرف على ما بني منه.

كما تعد صومعة حسًان إحدى الشقيقات الثلاث لصومعة الكتبية بمراكش و الخيرالدا بإشبيلية.غير أن هذا المسجد لم يتم بناؤه كليا،سوى منارته التي تشبه منارة جامع دمشق،ويبلغ كل جانب من المنار ١٦متر عرضا،ويبلغ ارتفاعه ٦٥ مترا،ما هذه المنارة من أعضم المنارات في الغرب الأسلامي.و تتميز من الناحية المعمارية ببنائها من حجر صلب الذي أعدت أجزاؤه بعناية بالغة،واختيار موقعه كان من أمثن البقاع و أقدرها تحملا لثقل هذا البناء الشامخ الذي ظلً صامدا أمام الزلزال الذي عرفته الرباط سنة ١٧٥٥ميلادية،رغم فقدانه لنصف أعمدته التي يبلغ عددها أربع مائة عمود.

ومن مميزات هذه الصومعة أيضا أنها سهلة الإرتقاء بفضل الدرجات المنبسطة التي كانت تصعدها الدواب حاملة أدوات البناء من حجر و طين و غيرها.

وقد أخد هذا الجامع شكله الهندسي العام من الجوامع الأندلسية و القيروان و الشرق الإسلامي،ومن بين المؤثرات الشرقية التي تمثلت في مسجد حسًان السدفتان المواجهتان لجدار القبلة،في حين تمثلت مؤثرات القيروان في عقود المنار المتجاوزة و في عدم تساوي الأعمدة كما لو كانت عن قصد،حتى لا يضفي تساوي العقود على المسجد طابعا رتيبا.و مع ذلك يكاد يستحيل أن نأخد نظرة حقيقية عن الفن الزخرفي المعقًد الذي تتميز به المنارة،ولعل ما يميزها هو التصميم الزخرفي المختلف لكل وجه من أوجهها الأربع. إلاً أن بناء هذا المسجد توقف بوفاة الخليفة يعقوب المنصور عام خمسة و تسعينة و خمس مائة هجرية، و هناك من يرجع عدم إكتماله إلى إنشغال الدولة الموحدية بمشاكل الأندلس. وأثار هذا المسجد ما تزال تشهد على ضخامته، حيث يعتبر من المباني التاريخية المتميزة بمدينة الرباط.

– مسجد تينمل:

بني مسجد تينمل من طرف الخليفة الموحدي عبد المومن في مدينة تينمل التي تبعد مائة كلمتر جنوب شرق مدينة مراكش،وقد بني هذا المسجد تخليدا لذكرى المهدي ابن تومرت وذلك لإرتباط قرية تينمل نه. يقول ابن خلدون على أن أهل ابن تومرت كانوا أهل نسك،و أن ابن تومرت كان قارئا محباً للعلم و كان يسمى باللسان البربري[أسافوا]التي تعني الضياء لكثرة ما كان يسرَح القناديل بالمساجد حتى يتم ملازمتها من طرف السكان.

ويعد هذا المسجد من أروع ما خلفه الموحدون رغم بساطته في البناء والزخارف مقارنة بباقي المآثر الأخرى التي شيدوها في مناطق أخرى مثل حسان و الخيرالدا.

وقد بني هذا المسجد بتصميم ذي شكل مستطيل على مساحة طولها ٤٨,١٠متر،و عرضها ٤٣,٦٠متر،ويحاط بسور طويل تعلوه شرفات،وتتكون فيه قاعة للصلاة من تسعة أروقة موجهة نحو القبلة،ويشكل إلتقاء البلاط المحوري و الرواق الموازي لجدار القبلة شكلا هندسيا على نحو الحرف الاتيني T] .

و تتوزع قبابه الثلاثة بشكل منتظم على طول رواق القبلة و بمرور الزمان و ما يحمل لم يتبقى من هذه القباب إلا واحدة التي توجد في الزاوية الجنوبية الغربية.

وترتكز أروقة المسجد على دعامات مبنية من الآجر بواسطة أقواس متنوعة الأشكال التي تساهم في إعطاء جمالية خاصة لقاعة الصلاة.و تعلو المنبر و المحراب صومعة مستطيلة الشكل،هذا الشكل الذي يعتبر إستثنائيا في هندسة الجوامع بالمغرب.

أما الصحن فيمتد شمال غرب قاعة الصلاة و هو محاط بأروقة،ومن حيث الزخرفة يشكل محراب تينمل إحدى روافع الفن الإسلامي بالمغرب.

٢- العمارة المدنية:

شهدت دولة الموحدين كثير من المنشآت المعمارية التي أقيمت لعدة أغراض،كتوسيع الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف للعاصمة مراكش أنذاك،و تأسيس الضاحية الملوكية،ثم تأسيس مدينة رباط الفتح المسماة بالمهدية و تأسيس العديد من المدارس إضافة إلى تأسيس الخليفة المنصور للمستشفى الكبير و العظيم(البيمارستان).

– توسيع مدينة مراكش:

لقد شهدت العاصمة الموحدية مراكش إزدهارا و تقدما في ظل الخلفاء الموحدين الدين إهتموا بها كثيرا كقيام الخليفة أبو يعقوب يوسف بتوسيع العاصمة الموحدية مراكش عام تسعة و سبعين و خمس مائة هجرية، ويرجع السبب في توسيعها إلى تضييق مساحتها على أهلها رغم أحيائها الكبيرة والدُور العديدة والفخمة لرجال البلاط التي كانت قد أقامها الخليفة الموحدي عبد المومن،كما أصبحت مراكش لا تسع الوافدين إليها سواءٌ من المغرب أو الأندلس، وقد رأى الخليفة أبو يعقوب يوسف بعدما دعى قبائل مسكورة و صنهاجة للمجيئ والاستقرار بمراكش العاصمة، وأولى هذه المهمة إلى خلفه أبو يوسف يعقوب الذي سيصلح لذلك. وقد تم الإتفاق على زيارة المدينة من الجهة الشرقية القبلية وإنشاء مدينة جديدة متصلة بها، فجمع العبيد و الرجال لهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة، واختط للمدينة الجديدة اتصل بناء السور حول المواقع الجديدة، وقد دامت مدة بناء باب الشريعة حوالي أربعون يوما، وبعد الانتهاء منه بدأوا بإنشاء الدُور و الرَباع بسرعة كبيرة في مراكش.

و قد بنى هذه المدينة الجديدة التي تعرف بإسم [بتا مراكش]خاصةً به و بخواصه، ويصف ابن سعيد هذه المدينة على أنها من عجائب همَات السلاطين، ذات أسوار ضخمة، وأبواب عالية، كما تتوفر على قصر الخلافة، وبها ديار عظيمة كدار البلَور و دار الرَيحان وكل دار منهما لا تخلو من المياه و البساتين العجيبة، كما تتوفر على ثلاث أبواب مختصة: أحدها هو باب البستان الذي كان لا يراه إلا خواص بني عبد المومن ويفضي إلى مكان يعرف بالبحيرة، وباب الوادي داخل مدينة مراكش يخرج منه الخليفة إلى ما يحتاج إليه بالمدينة، والباب الثالث: يسمى بباب الرياض الذي توجد أمامه رحبة عظيمة تحمل طرَاد الخيل كمت توجد بها قبة الخلافة،وفي رحبة القصر دار الكرامة والأضياف و في هذه الرحبة المدرسة و هي مكان به خزائن الكتب،كما يوجد بمراكش الجديدة دار مخصوصة للوزارة المحلاة بوزير الجند، وتفضي هذه الرحبة إلى باب السدة و هو يفضي إلى خارج مراكش وقد كان مخصوصا ببني عبد المومن، كما يوجد بمراكش الجديدة التي أختطها أبو يعقوب يوسف مقابر الأكابر و يوجد بالرحبة باب السقائف: وهو باب كبير يخرج منه إلى سقائف أهل الجماعة وهي ذرية العشرة أصحاب: مهديهم إبن تومرت و سقائف أهل الخمسيين، وسقائف الطلبة وهم أهل العلم

والقرآن، وسقائف الحفاظ وهم المقدمون على الأعمال لحفظها، وسقائف أهل الدار وهم غُلمان الخلافة ثم يخرج من هذه الرحبة إللى سقائف القبائل وأعيان الغزو والجموع ثم يفضي إلى رحبة عظيمة فيها سقائف خنميسة وجدميوة، وقبائل مسكورة وصنهاجة هؤلاء هم قبائل الموحدون. وبها موضع صاحب الشرطة وبزائها الجامع المبني في[تمراكشت]على صحنه شباك من الصفر الأندلسي وهو في غاية الزخرفة والإتقان ويبرح المنبر مسستورا في بيت المقصورة فيضلان مستوران إلى غاية يوم الجمعة وعند إقتراب موعد الصلاة ترفع ستورهم إضافة إلى النهر الذي جلبه المنصور و الذي يخترق قصوره و يمر على السقائف والمرجات المقدمة الذكر ثم يحدق بالجامع فيمربين الأسواق إلى أن يخرج على باب الصالحة من أبواب مراكش. وفي الرحبة المقدمة الذكر باب الكحل الذي يدخل منه الموحدون ويوجد أمامه فضاء عظيم يسع وقوف الخلائق،ويوجد بمدخل المدينة حجر و صهريج كبير،و الصهريج يعني لأهل المغرب البركة،وهي بركة عظيمة و عليها سور وباب يصبُ فيها النهر الثاني الداخل إلى مراكش،وفيها توزع بقياس معلوم على قصور الناس ثم ينحدر بقية الماء في نهر يشق المدينة من جهة أخرى في وسط الأسواق وما بعدها،وفيها بركة تصب فيها المياه وفي هذه الرحبة باب الشريعة أمام مصلَى العيديين،و بينهما فسيح عظيم به سوق الخيل،وللسلطان به قصر مطلٌ عليه ويليه باب نفيس.

رباط الفتح:تأسيس هذه الحاضرة الموحدية لم يتم على يد خليفة واحد،بل تأسست من طرف تلاثة خلافاء موحدين وهم عبد المومن ويوسف ويعقوب،وقد إستغرقت مدة تأسيسها حوالي نصف قرن وذلك مابين ٥٤٥إلى٥٩٥هجرية،وقد جاء بناء هذه المدينة مشابها لمدينة الإسكندرية من حيث اتساع الشوارع، وحسن التقسيم، واتساع البناء وتحسينه وتحصينه إضافة إلى بنائه على البحر. ويقع موقع رباط الفتح أو المسمات بالمهدية في العصر الموحدي على شاطئ المحيط وما تزال لليوم، ويتكون هذا الرباط في القديم من برج للسكنى وكانت توجد حوله أرض حراثية،وقد كان هذا البرج في ملك ثلاثة أشخاص: بعضه لأهل سلا، وبعضه لأبن وجاد من أهل إشبيلية، وجانب منه كان للمخزن فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم، ويدل اسم رباط الفتح، رباط المجاهدين على نقطة تجمعهم بعد ذلك إلى الأندلس عبر الطريق البري المتجه نحو الشمال لعبور مضيق جبل طارق مرورا بقصر المجاز وهكذا بدأت المدينة كمعسكر لاستقبال عبد المؤمن جند الخليفة وبعد ذلك أمر الخليفة بتطويرها.

وبوصول الخليفة عبد المؤمن لها عام ٥٤٥ هجرية قام ببناء القصبة الحصينة المعروفة إلى الأن على فم البحر، وأجرى لها الماء من سرب تحت الأرض حتى وصل إلى قصبة المهدية، وقد طالت مدة العمل في هذا السرب حوالي شهور، وبوصول الماء للقصبة قام الخليفة ببناء سقاية لها حتى يتمكن الناس من الشرب منها، ولتسقي الأرض، وقد أحاطت بهذه السقاية بعد ذالك البحائر والمغروسات وبناء الديار والأسواق حواليها،واهتمام الخلفاء الموحدين بها غاية الإهتمام، حيث قام الخليفة بتمصيرها وتمهيدها،وبنى أسوارها من جهة الجنوب والغرب,

وبعدما تعطل ذات يوم جر المياه بالسقاية قام الخليفة المنصور بإصلاحها و إعادتها إلى حالتها الطبيعية، فبنى صهريجا متسعا يجتمع به الماء، فأصبح الماء يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية. كما ألقى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه ما بين سلا والمهدية الذي كان قد خرقه البحر وهدمه، فأمر فأمر بنصب جسر أخر إلى جانب الذي تم بناؤه أحسن من الأول حيث بني من الحجر العادي الثابث لمقاومة أمواج البحر كما امتاز هذا الجسر بالاعتلاء وبنائه في ظرف وجيز بأعظم الألات. كما عرفت حاضرة رباط الفتح خلال العصر الموحدي إنشاء صومعة حسان التي تمت الإشارة إليها لها في العمارة الدينية،وتأسيس العديد من القصور الملكية والأسوار التي بدأ يوسف بن عبد المومن ببنائها من جهة الشمال والغرب التي سوف نأتي على ذكرها في فنون العمارة العسكرية لاحقا. وقد عرفت حاضرة رباط الفتح في أواخر عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي اتخدها مقر سكناه وحاضرة لمملكته بعدما كان معجبا بهيئتها ما جعله يقوم بتجديد قصبتها التي أصبحت تسمى بالمهدية وتشبه المهدية الفاطمية بإفريقية فعني بتنضيمها عام ٥٨٨هـ حيث يقول ابن خدكان[أن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وقيامه إضافة إلى ذلك باستكمال أحيائها ومبانيها وأنشأ بها مسجدا واسع الفناء حيث يقول المراكشي[بأنه كان أكبر مسجد في المغرب] ،وأنشأ له صومعة متناهية في العلو على هيئة منارة الإسكندرية التي سبق ذكرها في العمارة الدينية.

أسباب سقوط الموحدين :

قد يُفاجأ البعض ويتعجَّب لهول هذا السقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصورة السريعة المفاجئة، فيسعى للبحث عن علله وأسبابه، وحقيقةُ الأمر أن هذا السقوط لم يكن مفاجئًا؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار ؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

الظلم والقتل مع دولة المرابطين :

تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف ممن لا يستحقُّون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبدًا أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية: «إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة».

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخَّر عقوبة الظلم؛ لكنها –بلا شكٍّ– تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمْهِلُ ولا يُهْمِل، وقد أسرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء مَنْ يشكُّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم –كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجَّل الله لهم العقاب فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعهم أنهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شاركه فيها أحد الخبثاء ممَّنْ هو على شاكلته –وهذا أمر في غاية الخطورة– لقد حذَّر النبي كثيرًا من العداء بين المسلم وأخيه المسلم، ومن التدابر والتحاسد والتناجش والتباغض، روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا –وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ– بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ».

العقيدة الفاسدة وتكفير المرابطين :

العقائد الفاسدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل السنة، وبالرغم من أن المأمون قاومها وأبطلها، إلاَّ أنَّ أشياخ الموحدين ظلُّوا يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًّا.

وثمة أمر آخر لا يقل خطورة عن هذا الأمر، ألا وهو تكفير المرابطين، وقد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسبي نسائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنيانها من القواعد.

إن تكفير المسلم قضية في منتهى الخطورة، لا ينبغي لعاقلٍ بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة t أنَّ رسول الله r قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا». وعند مسلم: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ».

وقال أبو حامد الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل المسلم إليه الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة، المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (قارورة) من دم مسلم» .

وقال ابن تيمية: «مَنْ ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشكِّ، بل لا يزول إلاَّ بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة».

الثورات الداخلية :

كان من عوامل سقوط دولة الموحدين –أيضًا– الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بني غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

همة النصارى وفتور المسلمين :

الإعداد الجيد من قِبَلِ النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قِبَل الناصر لدين الله ومَنْ تبعه بعد ذلك.

انفتاح الدنيا على دولة الموحدين :

وهو أمر مهمٌّ وجدٌّ خطير، وهو انفتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحُكم.

بطانة السوء :

بطانة السوء المتمثِّلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك.

ويُعَلِّق على ذلك الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصر ألعوبة في يد وزيره ابن جامع، الذي لم يكن مسئولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضًا، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدَّت إلى تصدُّع سلطان الموحدين من أساسه.

لقد كُتب لأسرة ابن جامع التي تولَّى كثير منها الوزارة، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تُؤَدِّي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.. لقد تصرف ابن جامع – الذي يمثِّل بطانة السوء – بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسية الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسه.

إهمال الشورى :

إهمال الشورى من قِبَلِ الناصر لدين الله ومَنْ بعده من الأمراء، وإنها لمخالفة صريحة للقرآن الكريم؛ فالله تعالى يقول: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ} [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله تعالى في صفات المؤمنين: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [الشورى: ٣٨]. قال الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره: لا يُبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها.

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتُسْقِط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبقَ منه في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ هما غرناطة وإشبيلية، ومع ذلك ظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من ٢٥٠ سنة من هذا السقوط المروِّع لدولة الموحدين!

وهذه قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين:

١ – عبد المؤمن بن علي (٥٢٤–٥٥٨هـ=١١٢٩–١١٦٣م).

٢ – أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨–٥٨٠هـ=١١٦٣–١١٨٤م).

٣ – أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (٥٨٠–٥٩٥هـ=١١٨٤–١١٩٩م).

٤ – أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥–٦١٠هـ=١١٩٩–١٢١٣م).

٥ – أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ=١٢١٣-١٢٢٤م).

٦ – عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ=١٢٢٤م).

٧ – أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ=١٢٢٤-١٢٢٧م).

٨ – يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ=١٢٢٧-١٢٣٠م).

٩ – المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ=١٢٣١-١٢٣٢م).

١٠ – الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ=١٢٣٢-١٢٤٢م).

١١ – السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ=١٢٤٢-١٢٤٨م).

١٢ – أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ=١٢٤٨-١٢٦٦م).

١٣ – أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ=١٢٦٦-١٢٦٩م).

المراجع :

- طلال مشعل :نشأة دولة الموحدين ، مقال على الشبكة العنكبوتية
- محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس
- حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته
-
-